

الم المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية



البحث عن الكرامة

ورقات تحليلية حول قضايا الهجرة

البحث عن الكرامة

ورقات تحليلية حول قضايا الهجرة

المؤلفون

خالد طبّابي

نعيمة الفقيه

هالة المؤدب

هاجر عرائسية

إن محتوى هذه المطبوعة هو مسؤولية المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية
والاجتماعية ولا يعبر بالضرورة عن موقف مؤسسة روزا لكسنبرغ

الفهرس

1.	من إحباط الاحتجاج الاجتماعي إلى الشروع الهجري غير النظامي: دراسة سوسيولوجية حول العلاقة السببية بين الاحتجاج الاجتماعي والهجرة غير النظامية	03	خالد طبابي
2.	وضعية المهاجرين واللاجئين وطالبي اللجوء بجهة مادين نعيمة فقيه	26	
3.	"نفذنا إلى العدالة أم بحث عن الكرامة" ! حالة المؤدب	44	
4.	العنف السلط على المهاجرات أصيلات جنوب الصحراء في تونس هاجر عرايسية	57	

**من إحباط الاحتجاج الاجتماعي إلى المشروع الهجري غير النظامي:
دراسة سوسيولوجية حول العلاقة السببية بين الاحتجاج الاجتماعي
والهجرة غير النظامية**

خالد طبابي

مقدمة

تَجْمَع تقارير مراكز البحث العلمية والمنظمات الدولية والجمعيات الحقوقية والمقالات الصحفية على أنّ البحر الأبيض المتوسط أصبح مسرحاً للماضي والقُصُص الإنسانية منذ تسعينيات القرن الماضي، حيث حاول العديد من البشر الهجرة بطريقه غير نظامية عبر المتوسط لكن هذه الرحلة ارتبطت بنهاية تراجيدية حيث غرفت العديد من القوارب في قلب المتوسط مما أسفر عن فقدان العديد من أرواح البشر. ورغم خطورة هذه المغامرة، فهي لم تمنع الشباب التونسي من مواصلة الحلم بالخلاص الاضطراري من واقع مغرق في الفقر والإقصاء والتمييز، فظلّ هذا الحلم قائماً حتى بعد مرور أكثر من 8 سنوات من مسار انتقالي لازال مرتبكًا وهشًا. كما تجدر الإشارة بالقول أنّ عديد الخبراء والمناضلين والحقوقيين أكدوا على مراجعة السياسات الحكومية، لكنّها، ومن المؤسف حقاً إنها ظلّت محافظةً على نفس الخيارات بل وزاد وقوعها حدّة لينجم عنها تراجع وكساد اقتصادي، ونستشف ذلك من

خلال بعض المؤشرات التقنية على غرار تعمّق أزمة البطالة وتدحرج الدينار وغلاء المعيشة وهشاشة المرافق الصحية والتعليمية العمومية والبنية التحتية بأغلب ولايات الجمهورية، وخاصة المناطق الداخلية، مما زاد في استفحال التفاوت بين الطبقات والجهات، وهذه المعطيات الأخيرة وإن كانت بصفة عامة ومختصرة، فهي كانت سبباً مباشراً في تنامي وصعود حركات الاحتجاج الاجتماعي خاصةً بعد ثورة 14 جانفي 2011 والتي تطالب بفتح آفاق للتشغيل والحرية والديمقراطية والتنمية الجهوية... لكن قابل هذا الحراك الاحتجاجي الانكسار واليأس، ومع سياق الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأمنية غذّت هذه المعطيات أدفاق الهجرة غير النظامية خاصةً لدى فئة الشباب.

من جهتنا لا يمكننا أن نُغفل العوامل السببية وهي مقتربة بالجانبين الاقتصادي والاجتماعي، ولا يمكننا كذلك أن نتجاوز التحليلات التي فسّرت ظاهرة الهجرة بالعوامل الثقافية والسياسية، لكن يسعى هذا المقال إلى البحث عن الطريف (الجديد)، وتحديداً العلاقة السببية بين الهجرة غير النظامية والحراك الاجتماعي والاحتجاجي، فقد لاحظنا بأنه كلّما تصاعدت الاحتجاجات الاجتماعية إلاّ ويتمّ كسرها إما بوعود لم تتحقق، أو كانت الاستجابة الحكومية في غير انتظارات المحتجين، أو تم إحباطها عن طريق محاكمات للمحتجين أو تجريمهم، ليأتي بعد هذا الإحباط موجات من الهجرة. وبالتالي يسعى هذا المقال إلى تفسير الهجرة غير النظامية بطاً بدینامیکية الاحتجاجات.

الفصل الأول: الإطار النظري والمنهجي

الإشكالية

دائما، يبحث الشباب وكل الفئات عن مكانة اجتماعية مرموقة، لكن هذه المكانة في المجتمع التونسي لم تتحقق لدى غالبية الفئات قبل منعرج 14 جانفي 2011، فاختارت أغلب الفئات وخاصة فئة الشباب صحبة تيارات سياسة ونقابية وحقوقية معارضة آنذاك الخروج للمطالبة بتغيير نمط الحكم، كما يأتي هذا الاحتجاج الشعبي بعد تحركات سابقة وأهمها انتفاضة الحوض المنجمي سنة 2008، وذلك بهدف تحقيق التنمية والعدالة الاجتماعية والديمقراطية، لكن الشعارات التي ناضل من أجلها الشباب ذات 17 ديسمبر 2010 وأمن بها مساء 14 جانفي 2011، وواصل النضال من أجلها حتى بعد سنوات من تاريخ الثورة في أماكن وأزمنة متعددة تبخرت وسط الساسة والحكومات المتعاقبة ، فاختار الشباب بعد هذا الإحباط طريقا آخر نحو تحقيق الحظوة الاجتماعية الغائبة والتي حلّت محلّها حالة من الهشاشة النفسية_ الاجتماعية الناجمة عن الفقر والإقصاء والتهميش، وكان هذا الطريق هو الهروب عبر المتوسط، حيث اعتبره الشباب نافذة نحو تحقيق حلمه .

بناءً على ما تقدّم، يمكننا طرح الإشكالية الجوهرية لهذا المقال كالتالي:

إلى أي مدى يمكن اعتبار الحراك الاحتجاجي خاصّة في كلّ من الحوض المنجمي، وتطاوين، وسيدي بوزيد وقلي والقصرين وجزيرة قرقنة

وخاصّة من بعد سنة 2011 والذى ارتطم باليأس والإحباط مما غذّى مشاعر الخيبة لدى الشباب عاماً حساماً في انخراط الشباب في المشاريع الهجرية غير النظامية وتجدّد موجاتها؟

الفرضيات

بناءً على الإشكالية سالفه الذكر، وما تفرّع عنها من أسئلة، وربطنا بالتقالييد السوسيولوجية أثناء البحث، وهي تأسيس فرضية أو فرضيات عمل لاختبار ما أثربناه من أفكار موجهة ومن تساؤلات جوهريّة. سنقدم فرضية عمل مفادها:

إنّ الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأمنية التي عصف المجتمع التونسي، وتحديداً بعد سنة 2011، وتنامي وصعود حركات الاحتجاج، وارتفاع مشاعر الإحباط والخيبة كان مناخاً طارداً للشباب، فكـلما ترطّم الاحتجاجات الاجتماعية باليأس والإحباط وتقابـلـها الانكسـار السياسي كلـما تزاـيدـ موـجـاتـ الـهـجـرـةـ غيرـ النـظـامـيـةـ وـتـتوـسـعـ الشـبـكـاتـ المحليةـ للـتـهـجـيرـ بـمـنـاطـقـ لمـ تـكـنـ خـزـنـاـ هـجـرـيـاـ وـلـمـ تـكـنـ بـؤـرـاـ طـارـدـةـ.

الطريقة الكيفية

سنعتمد خلال هذا المقال الطريقة الكيفية عن طريق درس بعض الحالات من الشباب الذين عاشوا الحراك الاجتماعي والاحتجاجي بعد الثورة بكلّ من سidi بوزيد، وقابلي وتطاوين والرديف، والقصرين وجزيرة قرقنة، ولم تتحقق مطاليم وشعاراتهم فاختاروا طريق الهجرة غير النظامية، فدراسة حالة شخص واحد في كلّ منطقة كفيلة بأنّ

تجعلنا نخلص إلى نتائج علمية دقيقة، "فالاستقراء التحليلي مجرّد عن طريق دراسة الحالة الواحدة تلك الخصائص التي تعدّ أساسية ثمّ تقوم بعميم هذه الخصائص. الاستقراء العددي يجرد عن طريق التعميم، والاستقراء التحليلي يعمم عن طريق التجريد. ويتمثل الاستقراء التحليلي في دراسة الحالات، وهذا ما يشرحه عالم الاجتماع الفرنسي ريمون بودونبقوله: "توجد أوضاع خاصة تبرز فيها ضرورة اعتماد الطرق الكيفية لأسباب تتعلق بالميزانية والسرعة في إنجاز البحث، ومن الأمثلة البحث الذي قامت به كوماروفسكي (Mirra Komarovsky)، حول تأثير البطالة على موقع رب الأسرة داخل أسرته، فشملت المعاينة عدداً ضئيلاً من الحالات. وبالرغم من ذلك استطاعت الباحثة أن تصل إلى تفسيرات مقنعة. هذا المثال يبيّن أنّ دقة المعاينة وعمقها وكثافتها يمكن أن تعوّض ضمن حدود معينة بالطبع عن ضيق مداها. كما يبيّن هذا المثال أيضاً أنّ تحليل الحالات يخضع للمبادئ نفسها التي تخضع لها الدراسات الكمية".¹

تقنية البحث: المحادثة نصف الموجهة (Entretien Semi directif)

اتجهنا في البحث الميداني إلى استخدام تقنية المحادثة نصف الموجهة، وذلك للقيام بالمحادثات التفهمية، لنفهم كيف عاشوا تفاصيل الحراك الاجتماعي والهجرة؟ أي حيئيات وملابسات الحراك والقرار، وكيف

¹ إبراهيم (عبد الله)، "البحث العلمي في العلوم الاجتماعية"، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء، 2008، ص 221.

أصابتهم مشاعر الخيبة والإحباط؟ وفيما يفكر بعد الإحباط؟ وغيرها من الأسئلة التفهمية، وسبب الاختيار هو أنّ الباحث يعد دليل المقابلة في هذه التقنية مسبقاً، وفي نفس الوقت حرّ في طريقة طرح السؤال ولكن الموضوع يظلّ محدداً، كما يمكنه طرح أسئلة جديدة إذا كان المستجوب يقول شيئاً مثيراً للاهتمام أو إذا لم يفهم الباحث ما يعنيه المستجوب، وهذا ما يمنحك معلومات أكثر تفصيلاً، ففي تمنحك حرية للباحث من ناحية وتمكنك من فرصة لمناقشة مواضيع قد تكون غير مخطط لها مسبقاً من ناحية أخرى.² وبالتالي تمنحك هذه المقابلة فرصاً أكثر لفهم حيّثيات وملابسات الحراك الاجتماعي والقرار والرحلة المجرية وفهم عوامل الطرد والجذب.

عينة البحث

نسعى في هذا المقال إلى دراسة حالات، فملامح العينة قد اخترناها حسب متطلبات الموضوع، وهم شباب عاشوا الحراك الاحتجاجي الاجتماعي الذي قابله اليأس ثم اختاروا الانخراط في الهجرة غير النظامية، وتتوزع العينة كالتالي:

شخص واحد من كلّ منطقة: ولاية سيدى بوزيد، قبلي "جمنة"، تطاوين، قفصة "الرديف" والقصرين "الماجل بلعباس" وصفاقس "جزيرة قرقنة" وتتراوح أعمارهم بين سنّ 20 و 45 سنة، ومن جنس الذكور ومن مستويات تعليمية مختلفة من الابتدائي إلى الجامعي، كما تختلف

² Debret Justine, « Les différents types d'entretiens » www.scribbr.fr, Le 08/06/2019, à 16 :27 h

تجاربهم كانت في الحراك الاجتماعي أو في طريق العبور، فهناك من هاجر عبر المتوسط والأخر عبر الحدود البرية المغربية الإسبانية، ومنهم من نجح في الوصول والآخر أحبط وأخر تم ترحيله قسريا، وهذا التنوع والاختلاف ما هو إلا زيادة لإثراء نتائج البحث. كما سنعرف بكل مستوجب في هواش المقال.

نظريات الهجرة: النظريات السوسيولوجية

نقدم في هذا العنصر سبب اختيارنا للتحليل بالنظريات السوسيولوجية بدل النظريات الأخرى، فعموما في النظريات الاقتصادية التي فسرت ظاهرة الهجرة نجد أربعة نظريات كبرى، وهي النظرية النيوكلاسيكية، أو ما يمكن أن نطلق عليه بالاقتصاد الكلاسيكي المجدد، ونظرية الاقتصاد الجديد للهجرة، نظرية السوق المزدوجة للشغل (La théorie du double)، نظرية السوق العالمية (La théorie des marchés mondiaux)، ثم نظرية النظم العالمية (systèmes mondiaux)³. وهذه النظريات فسرت ظاهرة الهجرة، لكن لها حدودها حيث لم تتطرق إلى عوامل الجذب والدفع بعمق، فقد اكتفت بالتحليل الكلاسيكي ولم تحلل كثيرا دور الهياكل المجتمعية والرأسمال الاجتماعي وسياق الحراك الاحتجاجي في صنع القرار، حتى وان حللت فهي لم تعمق محتوى التحليل، كذلك النظريات السياسية والنظامية (Systémiques)، تستند أغلب السياسات الهجرة منذ القرن

³ Mabrouk (Mehdi), *Voiles et Sel, Culture, foyers et organisation de la migration clandestine en Tunisie*, Les Editions Sahar, 2^{ème} édition, Tunis, 2012, P 19,20

العشرين على مسلمّة تعتبر غير قابلة للتغيير، على أنّ الهجرة هي امتياز وليس حقّ، فهذا النموذج الذي تستند إليه السياسات الهجرية مبني على الاحتياجات الاقتصادية لبعض البلدان، وبالتالي فهي موجهة أساسا نحو سوق الشغل، وعلاوة على ذلك فهي تستند أيضا إلى مبدأ السيادة الوطنية في مسائل السياسات الهجرية⁴، تتنوع أيضا مجموعة النظريات المقترحة لتفسير الهجرة الدوليّة التي تعكس تعقيد الظاهرة من ناحيّة وإدماجها من ناحيّة أخرى، فيعتمد المنهج النظامي une approche systémique إلى وضع تصوّر لنظام الهجرة كمجموعة من البلدان المرتبطة بتبادلات الهجرة التي تتشكلّ ديناميتها إلى حدّ كبير من خلال عمل الشبكات المختلفة التي توحدّ الجهات الفاعلة في الهجرة على مستويات مختلفة من التجمّيع، لذلك تستخدم مجموعة من المتغيرات الكلية والجزئية⁵. كما يدرس هذا المنهج حركات الهجرة في نظام ينطوي على حركة التدفقات المختلفة بين المصدر والأصل: أدفاق المهاجرين، ولكن أيضاً تدفق السلع والخدمات والأفكار⁶، وبما أنّ الهجرة تخلق فضاءً موحّداً espace unifié تشمل كلاً من منطقة الأصل ومنطقة المقصى، لذلك يجب الأخذ بعين الاعتبار النظام أو المنهج النظامي لفهم هذه الهجرة وأسبابها وعراقيلها. ولكن أهم العوائق التي منعت استخدام

⁴Piché (Victor), *Les théories de la migration*, Editions Ined, Paris 2013, P 44

⁵Mabrouk (Mehdi), *voiles et Sel...* opcit, PP 30_31

⁶Piché (Victor), «*Les théories migratoires contemporaines au prisme des textes fondateurs*», Dans POLPULATION, Vol 68, N : 1, 2013, PP 153_178, P 14

المنهج النظامي بشكل مكثّف هو الافتقار لبيانات شاملة ومقارنة وعدم توفر البيانات المتعلقة بالهجرة الدولية لبعض البلدان.

تجدر الإشارة قوله أن النظريات السياسية والنظامية لم تتطرق هي أيضا إلى عديد المسائل ذات العمق المجتمعي والاجتماعي، أما النظريات السوسيولوجية تسعى إلى التوسع في تفسير هذه الظاهرة، فهي تجمع بين العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، ولكنها تثير الاستنتاجات عن طريق التعمق في عوامل الجذب والدفع، وملابسات وحيثيات القرار والموقف العائلي وتحليل شبكات الهجرة، وتحاول إدراك الدور الهام الذي تعلبه الحلقات المجتمعية ودوائر صنع القرار، كما تحلل هذه الظاهرة عن طريق مناهج من علم النفس الاجتماعي كنظريات التحفيز Les Théories des motivations ونظريات التوقعات Les théories des attentes et des valeurs⁷ والقيم:⁸ السوسيولوجي هو قراءة مسرحة mise en scène للمشروع الهجري.

⁷ Piguet (Etienne) «Les théories des migrations, synthèse de la prise de décision individuelle», Revue européenne des migrations internationales, Vol 29_N : 3, 2013, PP 141_161, P 148

⁸ Mabrouk (Mehdi), Voiles et Sel... opcit, P 27

الفصل الثاني: الاحتجاجات الاجتماعية وأدفاق الهجرة

غير النظامية

I. وصف عام للاحتجاج الاجتماعي حسب الأصول الجغرافية للمستجوبين

يكون مفيداً ومعرفياً أن ننطلق بوصف عام لحركات الاحتجاج بكلّ من المناطق السالفة الذكر، وذلك لهم مسرحة الاحتجاج وهي نخلص إلى استنتاج مفاده أنّ هذه الحركات ارتبطت بالإحباط، الشأن الذي غذّى أدفاق الهجرة غير النظامية. عموماً تصاعدت حركات الاحتجاج جراء "فشل المنوال التنموي السائد إلى حدّ الآن والذي وقع اعتماده في إطار تطبيق برنامج إصلاح هيكلٍي سنة 1986 طبقاً لإملاءات وتصويبات المؤسسات المالية العالمية وعلى رأسها صندوق النقد الدولي والبنك العالمي المكلّفة بنشر الاختيارات النيوليبرالية التي وقع تصميمها في إطار ما يسمى "بوفاق واشنطن"⁹. وبالتالي السياسات الاجتماعية المنشورة هي التي كانت مسبباً أساسياً في تنامي وصعود حركات الاحتجاج. فقد شهدت تونس في تاريخها المعاصر أطول انتفاضة وهي انتفاضة الحوض المنجمي سنة 2008 حيث "تساءلت وسائل الإعلام عند اندلاع الأحداث

⁹ البدوي (عبد الجليل)، "الإشكاليات والتحديات الاقتصادية والاجتماعية في ظلّ مرحلة الانتقال الديمقراطي بتونس، من أجل بديل تنموي"، "تونس: الانتقال الديمقراطي العسير" مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، سلسلة قضايا الإصلاح 36، 2017، ص، 61_62.

هل تكون أحداث الحوض المنجمي هي بداية قلب الأولويات ودخول تونس منطقة الزوابع الخطرة بسبب تداعيات الأزمة الاقتصادية العالمية والارتفاع المتواصل لأسعار المواد الغذائية والمحروقات وانعكاسات الإصلاحات الهيكلية على الأمن الاجتماعي لشريحة واسعة من التونسيين".¹⁰ فقد كانت المطالب الاجتماعية واقتصادية بالأسماء، لكنها تعرضت إلى القمع البوليسي، الذي انجر عنه وقوع عديد القتلى والجرحى وارتفاع عدد المساجين ومحاصرة سياسية وإعلامية وأمنية بالمنطقة، ولكن هذا لم يُدمّر الروح النضالية تماماً، بل تواصلت الاحتجاجات الاجتماعية وانخرطت الحوض المنجمي في ثورة 14 جانفي 2011، لتتصاعد حركات الاحتجاج الاجتماعي من جديد، فقد أفادنا خليل¹¹ "اللائي" شاركت في الاحتجاجات من 2008 إلى الآن (2019)، أكثر الاحتجاجات التي تصير على ثلاثة حاجات: التنمية، التشغيل والانقطاع المتكرر للماء... ونشارك بصفتي فاعل سياسي وبطل في نفس الوقت..." فمن خلال هذه الشهادة، نستخلص القول بأنّ المطالب الاجتماعية المرفوعة منذ سنة 2008 لا زالت عالقة ولا زال شباب الجهة رفقة تنظيمات سياسية ونقابية وحقوقية معارضة يناضل من أجلها. كما كانت انتفاضة الحوض المنجمي هي البذرة التي ألمحت التحركات الاحتجاجية القادمة من فريانة والصخيرة وبنقردان وأخيراً مساء 17

¹⁰ طبافي (حفيظ)، انتفاضة الحوض المنجمي بنفسه (2008)، الدار التونسية للكتاب، 2012، ص 7

¹¹ محادثة أجريت يوم 09 جوان 2019، على الساعة 11 صباحاً، مع خليل شاب من الديف يبلغ من العمر 27 سنة، فاعل فيحركات الاجتماعية وفاعل سياسي، مستوى تعليمي ثانوي وله شهادة تكوين مهني، وله محاولة في الهجرة غير النظامية خلال جانفي 2019، عن طريق الحدود البرية المغربية الإسبانية لكنها أحبطت.

ديسمبر 2010 بسيدي بوزيد، حيث عمّ الاحتجاج وتوسّع على أغلب مناطق الجمهورية مما أسفر عن سقوط شهداء وجرحى، لكنها انتهت بإزاحة نظام استبدادي حكم البلاد لمدة 23 سنة، وعلى الرغم من إزاحة نظام لم يتمكن من تلبية الحاجيات الاقتصادية والاجتماعية فإنّ الاحتجاج لم يتوقف خلال 14 جانفي 2011 بل تواصل إلى حدّ هذا التاريخ (2019)، وكانت أغلب المطالب تنموية بالأساس، ونذكر على سبيل المثال بعض الاحتجاجات في السنوات الأخيرة: "ففي سنة 2015 احتج معلمو مدرسة الغابة السوداء في الرقاب على الوضع الصحي بالمدرسة خاصةً بعد وفاة تلميذة، كما طال الاحتجاج على الوضع الصحي منطقة السعيدة أيضاً وذلك بعد وفاة تلميذة بسبب إصابتها بمرض التهاب الكبد الفيروسي، كما احتج أهالي أولاد دللة للمطالبة بتحسين البنية التحتية للطرق الجهوية، شهدت كذلك منطقة أولاد زيد ببئر الحفي مظاهرهُ تطالب بإطلاق أشغال المنطقة السقوية، كذلك احتج الفلاحون بسيدي بوزيد وطالبوها بعدم إغراق السوق بالخرفان المهرّبة من ليبيا، كما احتجوا على رداءة الأعلاف التي تسببت في نفوق عدد لا يأس به من الخرفان...."¹² كما عمّ الاحتجاج حينما أقدم الشاب "رضا اليحياوي على الانتحار بولاية القصرين خلال جانفي 2016 والتي كانت فتيلًا لأجّج القصرين وكانت انطلاقه لسلسة من الاحتجاجات الاجتماعية في كافة معتمديات الولاية ومن بعدها جمّيع ولايات

¹² السجاني (عبدالستار)، مع مجموعة فريق عمل، "الاحتجاجات الاجتماعية في تونس، سنة 2015"، المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، المرصد الاجتماعي التونسي، 2015، ص، ص 220,221

الجمهورية وكانت أغلبها مطالبة بالتشغيل وتحسين الأوضاع الاقتصادية، ليصبح التشغيل عنواناً بارزاً للحركة الاحتجاجية في الجهة¹³، أمّا في مطلع سنة 2017 شهدت "معتمديات منزل بوزيان وسوق الجديد والمزونة وبئر الحفي مسرحاً لعديد التحركات المطالبة بالتنمية والتشغيل وتحسين البنية التحتية وتوفير مياه الري والماء الصالح للشراب..."، كما عاشت ولاية تطاوين منذ شهر أبريل لسنة 2017، على صفيح ساخن اتسّم بتصاعد نسق الاحتجاج وارتفاع مستوى الاحتقان والغضب، أين قام المحتجون بغلق جميع الطرقات الرئيسية للمدينة وتلّك المؤدية إلى حقول إنتاج البترول لينطلق الأهالي إلى منطقة الكامور في غياب الاستجابة الحكومية لمطالبهم أين تم قطع الطريق على كل القادمين والمغادرين إلى حقل الغاز... ليبقى هذا الاحتجاج من أبرز وأهم الاحتجاجات الاجتماعية خلال تلك الفترة، وقد شهد نهاية شهر ماي من نفس السنة حركة تصعيدية على إثر زيارة وزير التشغيل للمعتصمين تم خلالها التوجه نحو محطة ضخ البترول ومحاولة إغلاقها ليتدخل الأمن ويستعمل القوة المفرطة والغاز المسيل للدموع لتنتهي المواجهات بوفاة أحد المعتصمين على خلفية صدمه من قبل سيارة أمنية، ليحتدّ الاحتقان والغضب بالجهة... ليجد هذا الاحتجاج طريقاً إلى الحلحلة بوساطة اتحاد الشغل وانتهت باتفاق لقي رضاء جهوي خلال جوان 2017¹³، ولكن هذا الاتفاق لم يمنع من توقف الاحتجاجات

¹³ السحياني (عبدالستار)، مع مجموعة فريق عمل، "الاحتجاجات الاجتماعية بتونس، 2016 و2017"، المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، المرصد الاجتماعي التونسي، 2017، ص. 349، 336، 384.

الاجتماعية بالولاية المتواصلة إلى اليوم والتي تطالب بالتنمية والتشغيل والصحة والعدالة الاجتماعية الخ، عموماً يمكن القول أنّ الشعور بالغبن والإقصاء كانت محركاً أساسياً لتنامي وصعود حركات الاحتجاج، فقد قال وليد¹⁴ موضحاً هذا الشعور وسبب انخراطه وتأسيسه لحرّاك الكامور: "أنا واحد من ناس كشّاب، وقت إلّي سمعت بالبترول خارج لفرنسا... وأحنّى بطالة وتهميشه من الدولة، نمثّي لولاية ولا بيرو تشغيل يقلولي مفمش خدمة، وخيرنا ماشي لغيرنا اعتصمنا..." كما أفادنا أحمد¹⁵ أحد المستجوبين بولاية سidi بوزيد كالتالي: "ديما يخزرو لنا عباد من ورا الجبل عباد من ورا البلايك، هذاكـة علاش حتّى عملنا ثورة حبو يشوهوها بالسيف، يحبو يفسخوه اسم الثورة" .. أيضاً صرّح لنا سمير¹⁶ أحد المبحوثين من ولاية القصرين - معتمدية الماجل بالعباس - قائلاً: "نحب نعيش، لتوة عمري 24 سنة ما حسيت روحي عشت حتّى نهار" فهذا الشعور بالاحتقار يولد حتماً صراعاً قصد البحث عن الاعتراف، فحينما يشعر الفرد بأنّه فاقد لأهميته في المؤسسات الاجتماعية، هو شعور لا يتعلّق به كفرد فقط وإنما هو شعور جماعي

¹⁴ محادثة أجريت يوم 01 جوان 2019 على الساعة 13:22، مع وليد، شاب من ولاية تطاوين، يبلغ من العمر 27 سنة، فاعل ومن مؤسسي حرّاك الكامور، ومتّحصل على الإجازة الأساسية، هاجر هجرة غير نظامية عبر المتوسط خلال 14 أكتوبر 2017، لكنّ تمّ ترحيله قسرياً.

¹⁵ محادثة أجريت يوم 06 جوان 2019، مع أحمد، شاب من سidi بوزيد يبلغ من العمر 25 سنة، مشارك في الاحتجاجات الاجتماعية بالجهة، متّحصل على الإجازة الأساسية وهاجر هجرة غير نظامية خلال جانفي 2019 عبر الحدود البرية المغربية الإسبانية ويقيم حالياً في مدريد.

¹⁶ محادثة أجريت يوم 11 جوان 2019، على الساعة 21:42، مع سمير، شاب من ولاية القصرين أصل من منطقة الماجل بالعباس، يبلغ من العمر 24 سنة، مشارك في احتجاجات عمال الحضائر، المستوى التعليمي: ابتدائي، وله محاولة في الهجرة غير النظامية عن طريق المعبر البري المغربي الإسباني خلال سنة 2019 لكنّها أحبّطت.

يمس المجموعات السكانية التي تعاني في نفس المأساة، فيتوّلّ صراع بين مجموعات باحثة عن الحظوة الاجتماعية وأنظمة سياسية غير قادرة على مناصرة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية. كما عاشت ولاية قبلي احتجاجات اجتماعية تنادي بالتنمية والتشغيل والعدالة الاجتماعية، وسجلت أيضاً حركة احتجاجية أخذت إشعاعاً ومؤازرة كبيرة من قبل نشطاء المجتمع المدني والمنظمات الحقوقية وبعض أحزاب المعارضة وخاصة اليسارية منها، وهو ما يعرف بحراك جمنة، أو قضية "هنشير ستيل جمنة" وهو "صراع بين مستغلين خواص كبار تدعيمهم الدولة بقوانينها وسلطتها، ومواطنين يرون أنهم أولى باستغلال أرض أجدادهم، ولكن منذ 12 جانفي 2011، في عزّ الثورة توجّه العشرات من سكان مدينة جمنة إلى "هنشير ستيل" لاستعادة الأرض ومنذ ذلك التاريخ بدأ أبناء الجهة بالحراك لفكّ حقّهم في الأرض، إلى أن وصلوا إلى فكّها واستغلالها بشكل تطوعي من قبل "جمعية واحات جمنة"¹⁷ وأعضائها من أبناء المدينة... وكانت التجربة ناجحة إلى حدّ ما على الرغم من التعطيلات القانونية والإدارية والمالية ليتواصل الاحتجاج أيضاً إلى "سبتمبر 2016 حيث احتجّ عمال هنشير ستيل وعدد من أهالي جمنة وعدد من مكونات المجتمع المدني على خلفية إلغاء وزارة أملاك الدولة بتّة هنشير ستيل الذي تصرف فيه الجمعية" ، لكن هذه التجربة أي تجربة تأميم الأرض لم تقطع مع أزمة الجهة ولا أزمة الولاية ككل لتظلّ

¹⁷ بن خليفة (غسان)، "هنشير ستيل في جمنة: المصلحة العامة قبل الربح الخاص"، Le nawaat.org

17:18H, 19/06/2019

هذه المنطقة تعيش مظاهر التهميش والإقصاء، وتصاعدت فيها حركات الاحتجاج فقد قام مثلاً "أهالي الجهة" وعدد من مكونات المجتمع المدني بوقفة احتجاجية أمام مقر الولاية أواخر شهر أبريل 2017 للمطالبة بحق الجهة في التنمية والتشغيل، ليكون شهر ماي من نفس السنة مليئاً بالاحتجاج ، تزامنا مع حراك الكامور...¹⁸ ليصبح التشغيل والتنمية هما العنوان البارز للحرراك الاحتجاجي بمنطقة قبلي. كما عاشت جزيرة قرقنة خلال السنوات الأخيرة من بعد الثورة احتجاجات اجتماعية يمكن وصفها بالحادّة، ومن أبرزها: "أزمة شركة بتروفال وخاصة خلال شهر أفريل لسنة 2016 لتعيش الجزيرة على وقع حركات احتجاجية تصعيدية بلغت حدّ المواجهات مع القوات الأمنية ثم إعلان الإضراب العام وامتدت التداعيات إلى مدينة صفاقس حيث احتج مواطنون أصيلي الجزيرة تضامنا مع محتجي قرقنة ضدّ التدخل الأمني العنيف..."¹⁹ فالتشغيل وغياب الخيارات التنموية بالجزيرة كانت من مطالب الجزيرة. لكنّ تميّزت جزيرة قرقنة بالنضال والاحتجاج البيئي، فالحراك البيئي هو أيضاً جزء بارز في الحركات الاحتجاجية بالجهة، فمن خلال البحث الميداني، تمكناً من القيام بمحادثة مع أبرز الفاعلين في

¹⁸ السجhani (عبدالستار)، مع مجموعة فريق عمل، "الاحتجاجات الاجتماعية بتونس، 2016 و2017" ،...مرجع سابق، ص 412.413

¹⁹ ن.م...مرجع سابق، ص.307

الحراك البيئي، فقد أفادنا عمر البحار²⁰ بأنّ الكارثة البيئية والتلوّث البيئي الذي قامت به شركة طينة للخدمات البترولية جعلته يدافع عن رزقه ومستقبل الجزيرة، فقد صرّح لنا قائلاً: "ندافع على رزقي، الحوت يموت، التلوّث يقضي على كلّ شيء، وحتى وكالة حماية المحيط والدولة التونسية يسمح بتعويض الشركة مش للياس وقت إلى تلوّث البحر تدفع 50 ألف دينار، وأحنا نحبوا حماية الثروة السمكية ومستقبل صغارنا..." فالجريمة البيئية قاتلة للثروة البحريّة، مما يجعل من متساكني الجزيرة يعيشون القلق والخوف على مستقبلهم وقوتهم، ليصبح النضال البيئي بالجزيرة عنواناً بارزاً مختلفاً عن بعض المناطق الأخرى إلى حدّ ما، فتلوّث المحيط أو معالجة التلوّث هو الفاصل الوحيد كي يلبي الحاجيات الاقتصادية والاجتماعية للعديد من الفئات بالجزيرة، فلا دخل لهذه الفئات - فئة البحارة - إلاّ بخيرات البحر وإذا ما اندثرت فُضيَّ عليهم.

عموماً، يمكن القول أن التشغيل والتنمية والعدالة الاجتماعية والحد من التلوث ووضع حد لانقطاع المترقر للماء، والنهوض بالقطاع الصحي والتعليمي العمومي كانت من أبرز مطالب المناطق الداخلية وجزيرة قرقنة.

²⁰ محاكمة أجريت يوم 14 جوان 2019 على الساعة 21:44، مع عمر البخار، أصيل جزيرة قرقنة، يبلغ من العمر 41 سنة، فاعل ومؤثر في الحراك البيئي بجزيرة قرقنة، مستوى تعليمي ابتدائي، وهواجر هجرة غير نظامية عبر المتوسط خلال شهر جوان 2018، لكنّ ته ترحيله قيسأً

الاحتجاج الاجتماعي: رهان وتنظيم قصد إيجاد سبل التغيير

لئن كانت هنالك اختلافات بين المبحوثين سواءً من حيث السن أو الأصل الجغرافي أو التحصيل الدراسي، إلا أنّ ما يشدّ الانتباه من ذ الوهلة الأولى أنّ جمיהם ينحدرون من أسر متواضعة مرتفعة العدد وذات دخل محدود، ففي الغالب إنما أن يكون الوالد هو العائل الوحيد أو يعينه في تحمل عبء الإنفاق أولاده الذين انخرطوا في العمل الهش (عمال يوميون)، فقد صرّح مثلاً أحمد قائلاً "بابا متقادع يعطوه فيه في 300 دينار وهو عندو 11 صغير"، أما رامي²¹ فقد أفادنا قائلاً "حننا زوز عايلات في عايلة، عمّي متوفي هذا إلى خلي الوالد يصرف عالعايلتين". فيما اضطرّ سمير إلى الانقطاع عن الدراسة في سن مبكر لأنّ عائلته لم تكن قادرة على شراء مستلزماته الدراسية وقد قال في هذا الصدد "السبادي يا نمشي فيه نا للقراءة يا خويا، وبعد خليتهم ولو خاطرو هو خير مني في القراءة ومن وقتها بطلت". أمّا خليل فقد أفادنا بأنّ "وضعيتنا بسيطة، نصرفو من شهرية الوالد الله يرحموا، 600 دينار، عنا 8 في العائلة كلهم بطالة عنا واحد فقط دخل للخدمة مؤخراً في شركة البيئة وبعد ما عرس" كما صرّح لنا عمر البخاري قائلاً: "معنا حتى دخل،

²¹ محادثة أجريت يوم 06 جوان 2019، على الساعة 14:00، مع رامي شاب يبلغ من العمر 29 سنة من ولاية قبلي، منطقة جمنة، شارك في حراك جمنة، ومستوى تعليمي ابتدائي وهاجر هجرة غير نظامية عبر المتوسط في أكتوبر 2017، لكن تم ترحيله قسرياً.

كلّ نهار وقسموا..." أيضاً أفادنا وليد كالاتي: "خويا يعيش في فرنسا منغير أوراق ، حرق، وخويا لآخر روحوا بيء، وأنا روحوا ببيا، والوالد حالاً يأخذ في شطر شهرية خاطر قدّم في تقاعد مبكر" فالقاسم المشترك بين المبحوثين هي الحالة الاجتماعية الصعبة لعائلتهم، وهذا التردّي الاقتصادي يولد شعوراً بالاحتقار حسب هانث (Axel Honneth) وهي من أبرز دوافع هؤلاء الأفراد من أجل انتزاع الاعتراف من الآخر، وهذا الآخر ما هو في نهاية المطاف سوى الجهات التي تمارس عنفاً مادياً ورمزاً عليهم وسلبيّهم حقوقهم الاقتصادية وجعلتهم على هامش المؤسسات المجتمعية. مما سيجعلهم ينخرطون في حركات اجتماعية هدفها ردّ الاعتبار لهم سواءً كأفراد عند توفير مواطن شغل لهم وحفظ كرامتهم وسلامتهم الجسدية أو لجهاتهم عند التوزيع العادل للثروة وتكريس الحق في التنمية وفي بيئة سليمة. ليعتبر أيضاً "تشارليز تيلي" (Charles Tilly) أنّ هذه الحركات الاجتماعية تضمّ شرائح اجتماعية مختلفة يجمع بينها إحساس بالظلم والقهر ليترجم هذا الاحتقار إلى فعل جماعي يهدف إلى تشييد نظام جديد للحياة، وقد قال في هذا الصدد "إنّ الحركات الاجتماعية كما يوحي الاسم هي تنظيمات شاملة مؤلفة من جماعات متنوعة المصالح، تضمّ حال تشكّلها طبقات مهمة في المجتمع مثل العمال والجماعات النسائية والطلاب إلى جانب العنصر الفكري. والشيء الذي سيجمع هذه القطاعات المختلفة من المجتمع ذات المصالح المتنوعة هو شعور عام بالضيّم".²² فاختارت هذه الفئات الهشّة

تيلي (تشارلز)، "الحركات الاجتماعية"، ترجمة: رباع وهبة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص

الانحراف ضمن مسار احتجاجي للتعبير عن غضبهم من ناحية وانتزاع حقهم في التشغيل والتنمية من ناحية أخرى، لتجد نفسها تناضل مع جماعات تعاني نفس المأساة وراغبة في نفس الحلم. وبالتالي بداية الحشد والتعبئة. من تقنيات تواصل وتنظيم وأشكال احتجاجية والمساندة السياسية والحقوقية والنقابية الخ، فقد أفادنا خليل بأنّ "اتحاد الشغل وخاصة الاتحاد المحلي بالرديف رفقة أحزاب معارضة و خاصة اليسارية منها، من أبرز المساندين، وكانت مساندتهم بعديد الأشكال" كما أعلمنا بأنّ مساندتهم كانت ذات بعد نضالي فقد صرّح قائلاً: "هوما أولاد بلاد أولاً، والشيء هذا يهمهم، ومشفتش فاها حتى استثمار سياسي" ليضيفنا أيضاً في مجال تنظيم وتعبئة الاحتجاج الاجتماعي قائلاً: "نعملو اجتماعات ومشاورات ونحددوا طريقة وأشكال الاحتجاج، الاجتماع ينجم يكون في مقر أحد الأحزاب أو في مقرّ الاتحاد، والمشاورات مع الناس لكلّ مش كان مع الأحزاب..". أمّا في تجربة أحمد بولالية سيدي بوزيid ضمن الحركات الاحتجاجية وكيفية التنظيم والحشد، فقد صرّح لنا قائلاً: "الأحزاب يساندوا كان وقت الانتخابات، ونحن نسمعوا كان كلام مخاخنا، وكلّها واعية وتعرف حقوقها وواجباتها، حتى كان الطريقة متخلفة متع حجر وتكسير كياس وحرقان عجل ونخرجوا كان في الليل، خاطر القوادة رجعت كيما العهد الي فات"، أمّا حراك الكامور فقد شهد تنسيقاً وتنظيمياً بين الجماعات المحتجة، وكانت انطلاقتها تدريجية بدءاً بالتعرف، فقد أفادنا وليد كلاتي: "بدينا الاعتصام بالشوبه بالشوبه في

33²²

خيمني في ساحة الشعب، في وسط بلاد، حبينا نبني إنّو الحراك مهوش خيمة، حبينا نبنيوا إنّو تطاوين كلّها غاضبة، وانتشرت الخيام، وشكّلنا تنسيقية اعتصام الكامور، حسب الخيام، فمّة تنسيقية حيّ النور، حيّ المهرجان، ساحة الشعب (الخ)... كلّ رئيس تنسيقية يجي يحضر الاجتماع، وفمّة تنسيق بناتنا، كي نقولونس克روا الكياس نسکروه، وفي الاجتماعات كلّ واحد يجيّب فكرة وبعد نمشوا بالتصوير ونقسموا المهام مثلاً واحد شاد الاعلام وواحد شاد الصحافة..."أّما حراك جمنة فقد انطلق في عزّ الثورة، حيث صرّح لنا رامي كالآتي : "أول الثورة، بدينا بحرقان المركز، ومشينا ديراكت للستيل، وأحنا مغلغلين، وتكونت لجنة، وجماعة اللجنة في حدّ ذاتهم سياسيين، وهو ما الي ديمّا في الواجهة ويحكّوا، واللجنة هي تقرر وأحنا نفذوا، لكن وقت الي يقولونا حاجات متعجبناش منفذواهاش، لكننا متفاهمين ونسمعوا بعضنا، وجونا سياسيين كبار وساندونا، ..." كما قال رامي متحدثاً عن حيّيات الحراك من ناحية ويشصف حبيّم لأرضهم من ناحية أخرى الآتي: "عملنا اعتصامات، وخيم، وسكننا الكياس، ونباتو في الليل نعسو على الواحة، وخدمت فاها ببلاش، ونسقوا في النخل بشّ ميموتش وقت التحرّك، خاطر الحراك طول بقى تقريباً عامين ، خدمنا فاها بشكل تطوعي، وعملنا مسرحيات ونشاطات ثقافية وقت الاعتصام..." أّما الحراك للبيئي الذي عاشته جزيرة قرقنة وخاصةً منذ أبريل 2017، لم تقتصر فقط على الدفاع عن مصدر رزقهم باعتبار أنّ التلوّث يهدّد الثروة السمكية، وإنما أيضاً كان بداع الشعور القوي لسكان قرقنة كما أنّ الدافع

الاكولوجي كان محفزا لها أيضا وقد قال عمر في هذا الصدد: "القراقنة كلّ يحلوا بلادهم، ونحبوا نعيشوا في بيئه سليمة، ونحبوا بحرنا نظيف، والشيء هذا يتبع حقوق الانسان، والمتضمر من كان قرقنة كهو، خاطر أحنا نصدروا في الحوت من قرقنة_ صفاقس_ تونس والحوت معندوش حدود يعني تنجم تقول لحكاية international وتونس لكلّها خاسرة..." فاستفادة البحارة بجزيرة قرقنة وإدراكم لخطورة الكارثة البيئية على مستوى أرزاقهم خصوصا وما تنجر عنه من خسائر للبلاد عموما جعلهم ينخرطون ويسوسون حركة اجتماعية بيئية وذلك قصد وضع حد للتلويث وحماية ثروات البحر. لتجدر الإشارة بالقول أنّ الفئات الهشة وضحايا التلوث البيئي يشاركون ضمن احتجاجات اجتماعية وذلك قصد إيجاد سبل التغيير نحو الإيجابي، فهذا النسق والتضامن في الحركات الاحتجاجية، يمكن أن نصفه بالتغيير الداخلي وأنّ محصلة كلّ تغيير هو داخلي وليس خارجي، فعندما يعيش الفرد أو المجموعات حاجة من الفاقة والحرمان أو التهديد وغيرها يطرح على نفسه بدلاً كي يجد المكانة والراحة والاستقرار، فالفاعلون في حركات الاحتجاج يمارسون حسن التدبير والتسخير، فتنظيمهم الاحتجاجي خاضع لإستراتيجية عقلانية، وفي هذا الصدد يقول ميشال كروزير وفريديبراغ بأنّ "النسق هو آلية ملموسة يستطيع الأفراد من خلالها أن يقوموا به بكلة علاقات السلطة وأن يقوموا بتنظيمها ولكن مع الإبقاء على حريثم".²³ كما ينفي

²³ Crozier (Michel), (Friedberg), *L'acteur et le système, Les contraintes de l'action collective*, Editions du seuil, Paris 1977, P,P 97_98

كروزه وفريدي بارغ أي تدخل أو ضغوطات خارجية داخل أي تنظيم فالضغوطات لا تزيد التنظيم إلا صعوبة واحتلالا وبالتالي انهيار التنظيم، فعملية التسيير والتغيير هي عملية يقوم بها الفاعلون داخل التنظيم أو الشبكة وليس خارجها. فالمدرسة الإستراتيجية تبيّن أنّ الفاعل يبني إستراتيجيته بقطع النظر عن إكراهات البنية، فالحاجة إلى التغيير هو تغيير داخلي عندما شعرت الفئات الفقيرة بالحرمان فطرحت على نفسها الانخراط ضمن جماعات وتنظيمات تعاني معها نفس المأساة وذلك قصد إيجاد البديل.

كما أجمع أغلب المبحوثين على دور موضع التواصل الاجتماعي في التعريف بالقضية والحدّ. وقد وضح أحمد هذه المسألة قائلاً "الفيسبوك هو الإعلام البديل، هو الإعلام الثوري" ، ومن خلال هذا التصريح نكتشف أنّ لا ثقة لهم في المؤسسات الإعلامية، وهذا ما أفصح عنه عمر بقوله "التلفزة المقص ما تحكيش، عدّات أربعة كلمات وال الصحيح ما وصلاتوش" ومن خلال دور شبكات التواصل الاجتماعي في عملية الحشد والتعبئة، يمكننا توضيح دور الشبكات الاجتماعية الموجودة اليوم حسب "دارن بارني"²⁴، (DarinBareny) والتي هي عبارة عن موقع "واب"، تقدّم مجموعة من الخدمات لمستخدمها، كالفايسبوك وماي سبيس(myspace) وغوغل، التي أحدثت تغييراً كبيراً

²⁴ بارني (دارن). المجتمع الشبكي، ترجمة: أنور الجماعوي. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2015

في كيفية الاتصال والتفاعل بين الأشخاص والمجتمعات وتبادل المعلومات.

بناء على ما تقدم، يمكن القول أنّ الفئات الاجتماعية الضعيفة مادياً واقتصادياً، ذهبت إلى الانخراط والتنظيم في حلقات مجتمعية تطالب بحقها في العيش الكريم والعدالة الاجتماعية وذلك بحثاً عن الحظوة الاجتماعية الغائبة. وقامت بعملية التعبئة والحسد بكلّ ما تملكه من موارد، وهذا ما يفسّر بأنّ "الاحتجاج والحركات الاجتماعية ما هما إلا سياسة بمعانٍ أخرى، فالجماعات الفقيرة في مواردها أو التي يكون موقفها ضعيفاً بحيث تكون قادرة على ممارسة تأثير على القرارات السياسية، يمكن بالرغم من ذلك، أن تنخرط في عملية سياسية عن طريق النزول إلى الشوارع، وأحياناً المشاركة في العنف الجمعي".²⁵.

III. بينما ترتطم ذخيرة الاحتجاج باليأس والإحباط

يمكن القول بأنّ فكرة الإحباط النسبي (relative frustration)، مستوحاً من أطر نظرية ومعرفية، لأنّ هذه الفكرة وهذا المفهوم يحللّ مجموعة من القضايا والظواهر الاجتماعية والمجتمعية. فالإطار الأول للإحباط النسبي ذو بعد وطبيعة نفسية، أمّا الإطار النظري الثاني هو إطار الديمقراطية، وذلك عندما تفتح الديمقراطية الباب للمقارنة

²⁵ جونستون (هانك)، "الدول والحركات الاجتماعية"، ترجمة: أحمد زايد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2018، ص 51

الاجتماعية، وبالتالي تصبح الديمقراطية هنا داعمة لعدم المساواة المشروعة للمجتمعات الطبقية ليتم استبدال مبدأ المساواة بمبدأ الديمقراطية، فالعاطفة الديمقراطية تولد إحباطاً نسبياً ذلك أنّ المساواة الاجتماعية غائبة ومفقودة. وأخيراً أعطت نظريات الفعل الجماعي والحركات الاجتماعية وظيفة مركبة لفكرة الإحباط النسي، والقائمة على محورين رئيسيين، الأول: التوترات الهيكيلية (des tensions structurelles)، ذلك عندما يتلزم الفرد بحلمه لتحقيق نجاحه الشخصي، لكنه غير متكافئ اجتماعياً، أي هناك من يملك حظوظاً أوفر منه نظراً للتفاوت الاجتماعي، مما يسبب له حالة من الإحباط النسي، أما المحور الثاني فهو التغيير الاجتماعي وخاصة في سياق الأزمة الاقتصادية التي تفتح التوترات بين الطموحات ودرجات الرضا، فيحدث الإحباط النسي عندما تتسع الفجوة بين الطموحات وما مدى فرص تحقيقها²⁶. وبناء على ما تقدم يمكن القول أنّ عدم تحقيق المساواة الاجتماعية وفي سياق الأزمة الاقتصادية والاجتماعية تخلق حالة من الإحباط، لكنّ الشباب المهمش اختيار الاحتجاج وذلك قصد تلبية حاجياتهم الشرعية حسب المبحوثين، وبعد أن انخرطت الفئات الهشة في تنظيمات احتجاجية وحركات اجتماعية وجدت نفسها أمام وعد لم تتحقق، أمّا قمع الحركة أو تجريمهم وإيقافهم، أمّا حلول حكومية لم تكن ضمن انتظاراتهم، فقد أفادنا خليل كالاتي: "المعاملات

²⁶ Dubet (François), « Frustration relative et individualisation des inégalités », « Revue De L'OFCE » N 150, Pages 11, 26, 2017, P 3,4,5.

الأمنية والقضائية معاذش كيما قبل الثورة تصير مداهمات على الديار، تو إلي يعمل اعتصام يجيء استدعاء، عباد احتجت يجي مسافريلقى الأمن يفتش عليه، وللحظة هذى فمة ناس عندها استدعاءات من قبل الأمن، وفمّة محتاجين شدوا الحبس قرابة العام..." كما أضاف أيضا حول مدى الاستجابة الحكومية لمطالبهم قائلاً: "قد تصير احتجاجات واعتصامات فمة تجاهل من قبل السلطة، ميجيك حتى مسؤول..." ليضيف خليل في مقام آخر حول الحلول الحكومية: "أنا نشوف في شركات البيئة زادت غرفت البلاد، معندها حتى إنتاج..." كما اعتبر خليل بأنّ الدولة قد "تحايلت على المطالب الاجتماعية" حينما بعثت شركات للبيئة والغراسة. أمّا رامي فقد أعلمنا بأنّ أرباح ستيل بجمنة قد تطور بشكل ملحوظ وساهم في بعث دار شباب بالجهة وتحسين للسوق وغيرها، لكنّها لم تقطع مع أزمة البطالة، فقد أفادنا قائلاً: "المشكل إنّهم ميدخلوش زوز من العائلة يخدموا في ستيل، كي قالو واحد بركة وليت تبرعت لخويا..." والأمر كذلك مماثل بالنسبة لوليد أحد مؤسسي حراك الكامور فلم يكن ضمن المجموعة التي تمّ تشغيلها، أمّا في الاحتجاجات الاجتماعية لعمال الحضائر بالماجل بالعباس، فقد صرّح لنا سمير قائلاً: "المعتمد يقابلنا مينجمش يقنعك، معطانا حتى وعد، وقال أنا معندي حتّى دخل... واتحاد الشغل تفاوض علينا، وعطونا كرني (دفتر) علاج ... لكن مشكلتنا نحبوا نترسموا ونعاونو ديارنا، 300 د 200 د متعمل شيء، وأنا الشهرية إلى تجيئي نخلّص باها عطار وغضّار ودجاج..." فما يتمناه سمير وزملائه هو الترسيم بقطاع الحضائر، وتحسين وضعيته

القانونية والمادية، لكن عجزت الدولة في تحقيق أمنيات بسيطة لفئات لم تطلب المستحيل. أمّا عمر فقد ربط هرسلة قوات البوليس له نظراً إلى كونه عنصراً مؤثراً في الحركة البيئية بقرقنة وقد قال "قالولي يا تسكت معاش تكلمنا ومعادش تكلملنا إذاعات يا إما باش نلفقولك تهمة"، أمّا أحمد فقد عبر عن استياءه على الوضع والمشهد السياسي العام، بوصفه ثورة قام بها ومات من أجلها الشباب ولكن لم تنصف الثورة فئة الشباب متحدثاً عن العنف الرمزي الذي تسلطه فئة الكبار على الشباب "كيفاش بلاد يحكم فيها رئيس عمرو 90 سنة، ما همنيش فيه كانوا تجمعي كانوا يساري كانوا هضاوي، نحبو رئيس شباب كيفنا يفهمنا". كما أضاف متحدثاً عن طريقة القمع للاحتجاجات الاجتماعية قائلاً: "حتى جماعة المختصة (فرقة أمنية) كي نبدي منيش عامل شي هزوني، ويبدوا يسألوا فيا وينك آمس وغيروا... هوما يعرفوني ديماء حاضر (في الاحتجاج) يستعملوا في سياسية هيا نقلقوه بش انت معاد تعمل شي، وحتى كي متعملش يقلقوك بش متفكروش تعمل حتى شي..." كما تجدر الإشارة بالقول أنَّ الإحباط متعدد الأبعاد، إذ لا يمكن ربطه دائماً وأبداً بالجانب النفعي المادي وحسب، فأحمد على سبيل المثال قال "أنا كان عندي مشروع متاع خمسة بقرات وثلاثة عجول، مستورة الحمد لله"، أمّا رامي فقد أخبرنا قائلاً "عندي قهوة صغيرة"، فالإحباط باعتباره حالة وجданية قد يكون مرتبطاً بمدى تحقق ذاتية الإنسان، فأغلب المبحوثين عبروا عن يأسهم من تغيير الأوضاع، كما أنَّ هذه الحركات لم تتمكن من تحقيق غاية الاعتراف كما سبق وحللناه في

سياق سابق. وقد لخّص رامي هذه المسألة عند الحديث عن الفرق في المعاملة بين الأمان في أوربا وفي تونس "غادي يعاملوك كأنسان، هنا انت كيما الحيوان"

فمن خلال هذه الشهادات يمكن القول أن الاحتجاج الاجتماعي ارتطم باليأس والإحباط على مستويات عدّة، منها: قمع الاحتجاجات وتجريمها وتشوّهها، بعث الحكومات آفاقا للتشغيل الهش مثل الآلية وشركات البيئة، وبالتالي حلول غير قادرة على القطع مع الأزمة الاقتصادية، ولا يمكنها انتداب أكثر من شخص من نفس العائلة، كذلك عجز الحكومات المتعاقبة على وضع حد للكارثة البيئية والتلوّث وعجزت عن وضع حد لالانقطاع المتكرر للماء، كما عجزت عن حل أزمة عمال الحظائر وتسوية وضعياتهم المالية والقانونية، كما لم تجد الحكومات حلولاً جذرية لمجالات الصحة والتعليم والبنية التحتية والمرافق الترفيهية والثقافية وغيرها، وبالتالي هذه الاحتجاجات التي حظيت بمساندة سياسية ونقابية وحقوقية بصفات متفاوتة وما يمكن أن نطلق عليها بذخيرة الاحتجاج ارتطمت باليأس والإحباط فغدت مشاعر الخيبة لدى الفئات التي رسمت تحقيق حلمها عن طريق الاحتجاج. فالتفاوتات الاجتماعية والديمقراطية الزائفة كما ذكرناها سابقا، وهي ديمقراطية غير قادرة على مناصرة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، بعثت إحساسا بالخيبة والإحباط لدى الفئات الهشة، لتجد البديل التي طرحته على نفسها وهو الانخراط في حلقات مجتمعية تطالب بحقها في العدالة الاجتماعية

لكمّا لم تتحقق، لتصبح باحثة عن بديل آخر يحقق لها المكانة الاجتماعية المرموقة.

IV. من الإحباط في الاحتجاج إلى الانخراط في المشروع الهجري غير النظامي

1. القرار الهجري

بناء على ما تقدّم من تنظيم وتعبئة للاحتجاجات الاجتماعية المطالبة بالعدالة الاجتماعية والتي ارتمت بالانكسار والإحباط، بدأ الفاعلون عندها بالتفكير في بديل آخر يحقق لهم كرامتهم، وهو البحث عن عوالم أخرى أفضل من عالمهم حسب المبحوثين، لتجدر الإشارة بالقول أنّ الاحتجاج الذي قابله اليأس كان عاملاً طارداً وبالتالي الحديث عن العوامل الطاردة أكثر من الجاذبة، فهم يبحثون عن الحضوة الاجتماعية الغائبة في موطن النشأة ليصبح موطن الاستقبال مكاناً نحو تحقيق حلمهم الذي تبخر وسط الحكومات المتعاقبة. ويأتي هذا الاستنتاج بعد أن أفادنا وليد واصفاً حالة الإحباط قائلاً: "أنا أیست من وضع البلاد، ومن حالي وما نتصوروش باش يتحسن" في حين قال أحمد "البلاد هذه موش باش تقوملها حتى قايمة" وأضاف في مقام آخر "القانون صحيح شفتوا مكتوب أما ما شفتوش يتطبق". أمّا خليل فقد عبر عن يأسه من تغيير الأوضاع بقوله "ما تبدل حتى شيء، هي هي". مضيفاً في مقام آخر

ومعبراً عن يأسه كفاعل سياسي: "سنوات والواحد يناضل ولكن الأزمة زادت تعمقت، بالعكس أصبح إحباط كبير".

إن الإحباط باعتباره مولداً لاتخاذ قرار بالهجرة السرية والمرور إلى مرحلة التنفيذ اتخذ أشكالاً مختلفة كما سبق ووضمنا في السابق، فخليل على سبيل المثال كان دافعه الأساسي لخوض غمار هذه التجربة مردّه البحث عن العمل، وقد قال في هذا الصدد "داعي الأساسي هو البطالة" وأضاف "كيف يحکولي كيفاش عايشين في الخارج وظروف العيش، هداكة إلى عطاني شحنة باش نهاجر"، وقد اشترك معه في هذا رامي، وهذا الأمر راجع بالأساس إلى فقدان الأمل من أن يتحصل على شغل يحفظ له كرامته بعد أن استنفذ جميع المحاولات وقد قال رامي موضحاً لهذا الأمر "بعثت المطالب الكل، زايد ما تدبر خدمة إلا ما تدفع الج والعالة"، أو من خلال المطالب التي رفعتها الحركة الاجتماعية وباءت بالفشل. أمّا سمير بقوله "عمرى 24 ولتوة ما حسيت روحي عايش"، قد بلغ به الإحباط إلى حد الشعور بانتفاء إنسانيته. وفي مستوى آخر نجد الإحباط من تغيير الأوضاع العامة، وكذا قد حللنا هذا الأمر في مستوى سابق، أي أن الواقع المجتمعي ثابت ومحافظ على الظلم والفساد وانعدام الأفق، فخليل مثلاً قال "صوتنا قبل، حتى كان باش نعاودوننتخبو شيء ما هو باش يتبدل"، ونُضييف قول أحمد "شيء ما تبدل شيء، حتى الصباية مازالو". وهذا ما جعل أغلب المبحوثين يختارون الهجرة غير النظامية خوفاً من أن تطالهم تهم كيدية تجعلهم

وراء القضبان، وهذا في جوهره إحباط وفقدان أمل في العدالة والقضاء على حدّ السواء، وقد قال أحمد "شجاعوني البوليسية عالحرقة خاطر بعثولي ثلاثة استدعواوات"، ثمّ أضاف "نحب نرتاح في مخي، في تونس كان قعدت نضيع، خاطر ما نجم نعمل شيء وأنا نشوف في الظلم والقهر ولا ندخل للحبس ويلفقولي تهمة كبيرة ياسر"، أمّا وليد فقد قال "الدولة واعرة يا صاحبي، بدو يصطادو فينا بالواحد، غدوة عادي يلفقولك تهمة متاع عشرة سنتين" وأضاف في مقام آخر "ولت بونتوات مع الحاكم ولو يحبويكسرولنا خشومنا، هزو واحد لتوة متهم في الحبس"، أمّا بخصوص الحركة الاجتماعية التي انطلقت على اثر حادثة التلود البحري في قرقنة، قال عمر "أنا قرقنة خيرلي من أوربا" وأضاف في مقام آخر "القرقنة الكلّ يحبو بلادهم" لكن قمع الحركة البيئية وإحباطها جعلته يصعد قوارب الموت، على الرغم من أنه يمتلك الوثائق القانونية بأوروبا، لكن هرولة الحركة وهرسلته كفاعل كانت عوامل له لصنع القرار البحري غير النظمي، فقد صرّح لنا قائلاً بعد أن عَبَّر عن حبه لجزيرة قرقنة "أنا رغلي عندي carte séjour حرفت، خاطر ملقيني لي تهم عادي يشدوني في المطار".

إذا كانت الوضعية الاقتصادية الهشّة، والسياسات البحريّة، علاوة على ذلك متانة شبكات العائلة والجيران والصداقـة وأبناء الحيّ الواحد عوالم محفزّة على صنع القرار البحري، وذلك بدعم صريح أو ضمني من طرف العائلة أو مجموعة الأقران، فرامي على سبيل المثال قال "الشـايب

والعزوزة شجعوني"، وأما أحمد فقد أفادنا قائلاً "صحابي إلى يعيشوا
لبرا، قالولي ايجا واش بهمك". ليضيف خليل قائلاً حول تمويل العائلة
للمشروع الهجري: "العائلة شجعوني على المиграة خاصةً وقت إلى لقوا
إنو مفهاش ريسك، (خطر)، وهو ما إلى عطوني لفلوس، ولليوم نرجعوفي
لفلوس إلى تسفوها بش نحرق"، فإننا نضيف استنتاجاً مفاده أنَّ
الاحتجاج الاجتماعي الذي ارتطم باليأس والإحباط وغذى مشاعر الخيبة
لدى الشباب كان مناخاً طارداً، وبالتالي يمكن القول أنَّ هناك علاقة
سببية بين إحباط الاحتجاجات والانخراط في المشروع الهجري غير
النظامي، فعلاوة على الشهادات السابقة، أجمع المستجوبون أنَّ قرارهم
الهجري اتخذوه بعد أنَّ خيبت الثورة ومسار الاحتجاجات آمالهم، فكان
الرهان في موطنهم ولكن بعد أن فقدت الآمال عن طريق تنظيمات
احتجاجية خيرروا طريق الهروب نحو أوروبا.

كما أنَّ هذا الإحباط ولد حالة نفسية صعبة لدى التونسيين وخاصةً
بعد الثورة، "فنجد نسبة 53,6% من الشباب التونسي يرى أنَّ المناخ
الذي يسود البلاد غير مستقر، و 50% ممل، و 44% مرهق، وهو ما
يبين مناخاً من الضغط والملل، إذ نشرت مجلة تونيسكوب على موقعها
في 13 فيفري 2013 على لسان الدكتور سفيان الزبيدي رئيس الجمعية
التونسية للأطباء النفسيين للممارسة الخاصة أنَّ: "التونسيين يستملكون
المسكنات والأدوية المضادة للقلق بشكل أكبر منذ الثورة"، وأنَّ عدد

التونسيين الذين يستشرون الأطباء النفسيين في ارتفاع دائم منذ "27 جانفي 2011".

بناء على النظريات السوسيولوجية التي قدمناها خلال الإطار النظري نستخلص القول بأنّ العوامل الطاردة أكثر من الجاذبة، (عوامل الجذب والدفع) كما أنّ الرأسمال الاجتماعي والعائقي لعب دوراً في صنع القرار، كذلك العوامل النفسية الصعبة والتي يمكن تفسيرها ضمن نظريات التحفيز والتوقعات والقيم المستوحاة من علم النفس الاجتماعي والتي يكون خلالها الفرد باحثاً عن المكانة والثرورة والاستقلالية والانتساب (الانضمام إلى أنساب آخرين)، والأخلاق (الاعتقاد في طريقة أصح للحياة) يسرّت عملية صنع اتخاذ القرار، لنضيف استنتاجاً مفاده أنّ الاحتجاج الاجتماعي الذي ارتطم باليأس في سياق الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأمنية كان مناخاً طارداً ومحفزاً في صنع القرار،

2. إحباط الاحتجاجات وتتجدد موجات الهجرة

بدأنا آنفاً بوصف عام للاحتجاج الاجتماعي، وانطلقنا بالاحتجاجات الاجتماعية بالقرى المنجمية منذ سنة 2008، وذلك لفهم العلاقة السببية بين الاحتجاج والهجرة غير النظامية، وهي نثري عميق هذا المقال، بما مدى تجديد موجات الهجرة بعد كلّ ضغط احتجاجي ينتهي بالقمع

²⁷ ابن حميدة (معز)، كالف (جيرمانو)، غوميز بونت (فانسن)، بريتا (فانكوه)، فوليشلي (ستيفانو)، تقرير حول بحث: ميل وتجربة هجرة القاصرين المغاربة والتونسيين والمصريين، التضامن مع أطفال المغرب والشرق (سالم). المنظمة الدولية للهجرة، صندوق إقليم ميلانو للتعاون الدولي، أنولف بيمونت، 2013، ص 48

والإحباط، فيكون مفيدا القول بأنّ "قمع انتفاضة الحوض المنجمي استمر لمدة ستة أشهر (جانفي_جوان 2008) وتم إدانة واعتقال العشرات من الناشطين والزعماء المحليين والجهويين والإقليميين، وهو ما عزّ اليأس والإحباط بشكل لا يمكن إنكاره في صفوف الشباب التونسي بشكل عام وشباب الحوض المنجمي بشكل خاص. ففي صيف 2008 كانت هناك العديد من الوعود من قبل السلطة السياسية الحاكمة، ولكن هذه الوعود لم يتحقق منها شيء، مما أجبر العديد من شباب الحوض المنجمي للانخراط في مشروع الهجرة غير النظامية، وكانت هذه الهجرة عن طريق معتبرين غير شرعيين للوصول لجزيرة لمبادوزا، الأول عبر الحدود البرية التونسية الليبية، والثاني عن طريق السواحل أو البحرية الليبية نحو جزيرة لمبادوزا. كما شهد عدد الوافدين سنة 2008 بجزيرة لمبادوزا زيادة مقارنة بالسنوات السابقة، فالعدد الجملي للمهاجرين اللا نظاميين خلال سنة 2008: 31.250 شخص، أما في سنة 2007 فعدهم 12.184. والمهاجرين التونسيين اللا نظاميين لأول مرة خلال سنة 2008، بالمرتبة الأولى من حيث عدد المهاجرين اللا نظاميين، فعدهم بجزيرة لمبادوزا 6.762 مهاجرا. من بينهم 52 امرأة و184 قاصرا. أما النيجيريين فعدهم 6.084 مهاجرا لا نظاميا من بينهم 1.787 امرأة و351 قاصرا. أما في سنة 2007 فعدد التونسيين بجزيرة لمبادوزا 1.100 مهاجرا وهم بالمرتبة الرابعة من حيث سكان الدول المهاجرة نحو أوروبا"²⁸. وفي سياق الأزمة الاقتصادية

²⁸ Boubakri (Hassan), "Migrations Internationales et Révolution en Tunisie", Migration Policy Centre,

وَقْمَعُ الْحَرْكَةِ الْاَحْتِجَاجِيَّةِ الْمُنْجَمِيَّةِ سُجِّلَتْ الْجَمْهُورِيَّةُ التُونْسِيَّةُ مُوجَةً مِنَ الْهِجْرَةِ غَيْرِ النَّظَامِيَّةِ بَدْءًا مِنْ سَنَةِ 2008، وَلَكِنْ فِي نِهايَةِ سَنَةِ 2010، "تَمَكَّنَتْ دُولُ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ وَدُولُ السَّاحِلِ الْمَغَارِبِيِّ لِلْبَحْرِ الْمَوْسَطِ مِنَ السُّيُطَرَةِ عَلَى ظَاهِرَةِ الْهِجْرَةِ غَيْرِ النَّظَامِيَّةِ الْقَادِمَةِ مِنَ الْمَغَرِبِ الْعَرَبِيِّ وَإِفْرِيقِيَا وَدُولِ جَنُوبِ الصَّحَرَاءِ الْكَبِيرِ فِي اِتِّجَاهِ أُورُوباِ. إِذَا كَانَ الْعَدْدُ الْجَمْلِيُّ خَلَالَ سَنَةِ 2008 قدْ وَصَلَ إِلَى 39.800 مَهَاجِرًا فَقَدْ تَقْلَصَ خَلَالَ سَنَةِ 2009 لِيَصُلَّ إِلَى 11.000 مَهَاجِرًا غَيْرَ نَظَامِيٍّ، لِيَصُلَّ الْعَدْدُ الْجَمْلِيُّ لِلْمَهَاجِرِينَ سَنَةِ 2010 إِلَى 4.500 مَهَاجِرٌ"²⁹. أَمَّا بَعْدِ اِنْدِلَاعِ ثُورَةِ 14 جَانَفيِّ 2011 بِتُونِسِ، وَفِي الْفَتَرَةِ الْفَاَصِلَةِ بَيْنِ جَانَفيِّ وَأَفْرِيلِ 2011 وَصَلَ حَوْالِي 30.000 مَهَاجِرًا غَيْرَ نَظَامِيٍّ لِلشَّوَاطِئِ الإِيطَالِيَّةِ³⁰". وَحَسْبِ وزَارَةِ الدَّاخِلِيَّةِ التُونْسِيَّةِ فَإِنَّ عَدْدَ الْمَهَاجِرِينَ غَيْرِ النَّظَامِيِّينَ خَلَالَ سَنَةِ 2011 قدْ وَصَلَ عَدْدُهُمْ إِلَى 22.000 شَخْصًا أَوْ مَهَاجِرًا غَيْرَ نَظَامِيٍّ، بَيْنَمَا تَقْدِرُ إِحْصَائِيَّاتُ الْمَنْتَدِيِّ التُونْسِيِّ لِلْحَقُوقِ الْإِقْتَصَادِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ 35.000 مَهَاجِرًا غَيْرَ نَظَامِيٍّ دُونَ اِحْتِسَابِ عَدْدِ الْمُفْقُودِينَ أَوْ ضَحَّاكِيَا الْفَرْقِ³¹". وَبِالْتَّالِي يُمْكِنُ القُولُ أَنَّ ثُورَةَ الرَّابِعِ عَشَرِ

Rapport de recherche, N : 1, 2013, PP 1-37, P 3

²⁹ Boubakri (Hassan), "Les migrations en Tunisie deux ans après la révolution : gestion de l'asile et enjeux internationaux", Confluence méditerranée. Méditerranée : mare nostrum pour les migrants ? N : 87, 2013, P 5

³⁰ Boubakri (Hassan) Potot (Swanie), "Migration et révolution en Tunisie", Revue Tunisienne de sciences sociales, N : 141, 2013, P51-78, P 60

³¹ Forum Tunisien pour les droits économiques et sociaux, Observatoire Maghrébin des Migrations, Rapport : Migration non réglementaire. Tunisie 2017, p 6

من جانفي لسنة 2011 والتي أسفرت عن سقوط شهداء وجرحى وإزاحة نظام استبدادي ولكنّها لم تنتج حكومة سياسية قادرة على مناصرة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية مما عزّز مشاعر اليأس بعد الاحتجاج كانت عاملاً حاسماً في تجديد موجات الهجرة. كذلك تصاعدت حركات الاحتجاج بعد الثورة ، "فقد وصلت إلى 4960 احتجاجاً خلال سنة 2015 و 9532 حركة خلال سنة 2016 ووصلت إلى 8000 حركة خلال التسعة الأشهر الأخيرة لسنة 2017³²"، وفي ظل كل هذه الأرقام من الحركات تتزايد أدفاق الهجرة غير النظامية والتفكير فيها، فقد "قام المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية بدراسة حول "الشباب والهجرة غير النظامية بتونس" وقد شملت الدراسة ستة أحياء من ستّ ولايات مختلفة، هي الزهور من ولاية القصرين، جرجيس المدينة، بلدية الزهراء في المهدية، هي الطيب المهيри بالكاف، وهي السرور بقفصة. وتشكلت العينة من 1168 مبحوث، 3,3% ذكور و 46,7% إناث بمعدل 200 شاب مستجوب في كل هي. مع تغيير المستوى التعليمي والأوضاع الاجتماعية وغيرها، حيث أكد 53% من المستجيبين تحاورهم مع الأصدقاء حول الهجرة غير النظامية، كما أنّ نسبة 29,7% من المستجيبين فكروا في الهجرة غير النظامية قبل الثورة، و 25,1% فكروا في الهجرة حال اندلاع الثورة و 45,2% هم بصدّ التفكير في الهجرة الآن (2016)، كما بيّنت الدراسة أنّ 30,9% من المستجيبين لهم الاستعداد للانخراط في هجرة غير نظامية في حال عدم توفر الهجرة النظامية، أيضاً

³²Ibid.P 2

أي 9,2% من المجموع العام من أفراد العينة حاولوا الهجرة غير النظامية وأن 29,6% ممن لهم الاستعداد للهجرة غير النظامية كانت لهم محاولات 33 عملية من أجل ذلك وفشلت.

على الرغم من أنّ عدد المفقودين وصل إلى 350 شخص في سنة 2012³⁴ بالبحر المتوسط، والحادثة المأساوية يوم 6 سبتمبر 2012 التي تسببت في فقدان ثلاثة نساء وطفل يتراوح عمره بين 5 و8 سنوات وفقدان 74 آخرين مع وجود 9 أشخاص قتلوا بالياب الفاصلة بين صفاقس وجزيرة لمبادوزا³⁵، إلا أنّ الموجات تزداد بعد كلّ ضغط احتجاجي ينتهي بالإحباط والمحاكمات. "فحسب المعطيات المتوفرة عن هيئة الأمم المتحدة، منذ سنة 2014 إلى حدود سنة 2016، لقي حوالي 10آلاف شخص حتفهم في البحر المتوسط أرقاماً أكدّتها المنظمة الدولية للهجرة حيث مات غرقاً سنة 2014 حوالي 3500 شخص وفي سنة 2015 حوالي 3771 شخص وخلال السдавية الأولى لسنة 2016 حوالي 2814 شخص"³⁶. ورغم الأرقام والمعطيات المأساوية إلا أنّها لم

³³ Forum tunisienne pour les droits économiques et sociaux, Fondation Rosa Luxemburg, (North Africa Office), "Les jeunes et la migration non réglementaire, Enquête de terrain des représentations sociales, les pratiques et les attentes", Décembre 2016, P 5, 7,9

³⁴ Rapport Du Forum Tunisien Pour Les Droits Economiques Et Sociaux- *Les Tunisiens disparus en mer en 2012*, Mars 2013

³⁵ Lefèvre (Grégoire), Quivy (Pascale), "Quand l'Europe attire et repousse", Revue Projet, Migrations : quelle autre politique pour l'Europe ? N ; 335, 2013, PP 14_21, P 15

³⁶ السجاني (عبدالستار)، "الشباب والهجرة غير النظامية بتونس، دراسة ميدانية للتمثيلات الاجتماعية والمارسات والإنتظارات"، مشروع قوارب الشعوب، منظمة روزا لكسنبرغ والمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، ديسمبر 2016، ص 10

تمنّع من تجديد موجات الهجرة بتونس، فقد سجّلت "سنة 2017 حوالي 119369 مهاجراً تمكّنوا من الوصول لإيطاليا، من بينهم 9329 تونسيّا وتونسيّة قاموا بمحاولة اجتياز الحدود، حيث نجد 6151 مهاجراً تونسيّا تم إيقافهم على الأراضي الإيطالية، و3178 مهاجراً تونسيّا تم إحباط محاولة اجتيازهم للحدود التونسيّة، أي من بين 9329 شخصاً، تمكّن 66% منهم من الوصول إلى إيطاليا مقابل 34% تم إحباط محاولتهم خلال الثلاثيّة الرابعة من سنة 2017".³⁷ كذلك سجّلت سنة 2017، نسبة 89% من التونسيين الذين احتجزوا بمراكز الإيقاف للمهاجرين بإيطاليا. كما نشر المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية بتونس في صفحته الرسمية فايسبوك، على أنه من غرة جانفي 2018 وصولاً إلى 31 جويلية 2018، وصل 3221 تونسيّا إلى إيطاليا بطريقة غير نظاميّة مقابل 6150 خلال سنة 2017، مما جعل التونسيين في المرتبة الأولى في الوافدين إلى السواحل الإيطاليّة، كما نشر المنتدى بأنه من مطلع سنة 2018، إلى حدود أفريل 2018 تقريباً وصلت نسبة القاصرين التونسيين الوافدين بطريقة غير نظاميّة إلى إيطاليا 309 قاصراً، أي في حدود 30%.

عموماً، "منعت السلطات التونسيّة 1053 مجاًزاً خلال سنة 2015، 1881 مجاًزاً سنة 2016، و3178 مجاًزاً سنة 2017، و7046 مجاًزاً خلال الفترة الممتدة من 1 جانفي 2018 إلى حدود 10 ديسمبر 2018،

³⁷ المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، "التقرير السنوي: الهجرة غير النظاميّة من تونس" 2017، ص 1.2

كما وصل حوالي 569 تونسيا وتونسية إلى السواحل الإيطالية في سنة 2015، و820 مهاجرا تونسيا وتونسية خلال سنة 2016، و6151 مهاجرا تونسيا وتونسية خلال 2017 و6006 مهاجرا تونسيا وتونسية من بينهم 1028 قاصرا بدون مرافق و120 قاصرا مصحوب بمرافق و138 امرأة، ومعدل الأعمار 21 سنة خلال الفترة الممتدة بين غرة جانفي 38" 2018 إلى 10 ديسمبر 2018"

بناء على ما تقدّم، ومنذ انتفاضة الحوض المنجمي سنة 2008، نستطيع أن نخلص إلى كون موجات الهجرة ترتفع بعد كل احتجاجات اجتماعية تنتهي بعدم تحقيق المطالب أو قمعها أو تجريمها وبالتالي إحباطها، فتبعد للأرقام سالفه الذكر واعتماداً على شهادات المستجيبين حول تعزيز مشاعر الخيبة بعد احتجاجهم الاجتماعي نستنتج مرّة أخرى العلاقة السببية بين إحباط الاحتجاج وتغذية أدفاق الهجرة غير النظامية.

3. توسيع الشبكات المحلية للتهجير

أ- تاريخ ميلاد وتنظيمات شبكات التهجير

تجدر الإشارة بالقول أن ميلاد شبكات الهجرة غير النظامية كان في ثلاثة مناطق بالأساس، ويمكن أن نطلق عليها بالبؤر الطاردة foyer وتعود نشأة الشبكات حسب الأصول الجغرافية للمهاجرين:الأول: ما يمكن أن نسميه بالشمال الشرقي وهي مناطق

³⁸ المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، "أرقام وإحصائيات قسم الهجرة بالمنتدى من 01 جانفي 2018 إلى 10 ديسمبر 2018"

الوطن القبلي وتونس وبنزرت ومن أبرزهم جرزونة، رأس الجبل، غار الملحق بولاية بنزرت، ورادس، رواد، قلعة الأندلس، وحلق الواد بتونس الكبرى، وقلبية، منزل تميم،بني خيار بولاية نابل.أما الأصول الجغرافية الثانية هي مناطق الساحل وولاية صفاقس، نجد شاطئ سidi عبد الحميد بولاية سوسة، ومكين وصيادة وطبلبة بولاية المنستير، والشابة بولاية المهدية، أما صفاقس ففي كل من سidi حامد، صخيرة، سidi منصور، العباسة، جزيرة قرقنة.

أما مكان والأصول الجغرافية الثالثة للمهاجرين فهي مناطق أقصى الجنوب وعلى الحدود التونسية الليبية، وهي ولاية قابس وولاية مدنين وهي جزيرة جربة.³⁹ فالملاحظة هنا أنّ الجيل الأول للمهاجرين غير النظاميين يجتازون بحار المتوسط لأسباب اقتصادية، ولكن في نفس الوقت لأسباب معرفتهم بتفاصيل البحر والرحلة الهجرية، فقد تطورت أيضاً الشبكات من جيل إلى آخر، فقد انتشرت عبر ثلاثة عقود وثلاثة مراحل وتنظيمات كالآتي:

✓ "الحارقون الهواة": وتقوم هذه المجموعة التنظيمية على مجموعات الأحياء والرفاق والجوار والصدقة وتستحضر في مضمونها قيم [الرجولية وأولاد حومة] ويعدون لجمع الأموال عن طريق تهديد عائلاتهم بالانتحار، النسل، ابتزاز الأم أو العائلة... كما يقومون بشراء قارب الرحلة بمواردهم المادية المتاحة بالسوق السوداء وأكبر سوق

³⁹ Mabrouk (Mehdi), *Voiles et sel*, ... opcit, P 125_126

سوداء لبيع القوارب والعبارات هي سوق منزل كامل من ولاية المنستير ويتكلف القارب هناك بحوالي 5.000 دينار.

✓ الشبكات أو التنظيمات المتوسطة: وفيها المحترفون، حيث نجد فيها نوعاً من توزيع الأدوار، كاليد الخفية، والميكانيكي، وسائق القارب أو العبارة، والنقل أي المتاجرة بالبشر، وفيها أيضاً توزيع العوائد ومبالغ باهظة.

✓ الشبكات العابرة للقارات: ظهرت خاصة في الجنوب، وفيها جنسيات مختلفة حيث تسجّل وزارة الداخلية التونسية بين 70 و80 جنسية يدخلون إلى تونس كل سنة وتعبر الحدود التونسية، ونجد فيها أيضاً الاحتراف واختلاط الجنسيات في الأدوار كقائد السفينة مثلاً يكون من مصر، ولكن تنتشر فيها ممارسات العبودية فهي شكل من أشكال العصابات".⁴⁰

عموماً نستخلص استنتاجاً مفاده، أن شبكات الهجرة والتهريب انطلقت منذ تسعينات القرن الماضي، فمنذ أن كانت نشأتها حسب الأقاليم وبเดءاً بجيل الحارقين الأوائل، وكانت أسبابها اقتصادية واجتماعية من ناحية ومعرفة سكان الأقاليم الثلاثة بطقوس العبور من ناحية أخرى، إلا أنها توسيّع بعد عقدين اثنين في سياق الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأمنية وفي زمن تصاعدت فيه حركات

⁴⁰ مبروك (مهدى)، "مائدة مستديرة بعنوان: الهجرة السرية-أزمة اقتصادية وحلول مقترنة" ، مركز دراسة الإسلام والديمقراطية، 28 جوان 2018 بنزل أفريكا، تونس

الاحتجاج التي ارتطمت بالانكسار والإحباط، إلى أن أصبح الحديث عن شبكات محلية للتهجير.

بـ- حينما يصبح الضغط الهجري والتشدد الأمني داعماً لطقوس العبور

أمام سياق الأزمة الاقتصادية والاجتماعية وتنامي ديناميكية الاحتجاج خاصة بعد سنة 2011، ومع اتخاذ الحكومات المتعاقبة المقاربات الأمنية بدل الاقتصادية والتنموية، وفي نسق تزايد وارتفاع عدد المهاجرين غير النظاميين، انقسمت المسالك الهجرية إلى صنفين حسب المستجوبين، الأولى غير خطيرة، والمتمثلة في السفر إلى المغرب ومن ثمة التوجه إلى معبر مليلة الحدودي، وتقديم طلب لجوء إلى إسبانيا، فقد قال أحمد مفسراً هذه المسألة "المروكي حضرلي باسبور مضروب، ولبست *tenue* متاع الـ course متاع قورة، وكي ريتهم دخلت معاهم، وكي وصلت للديوانة متاع الـ اسبانيا جبدت الـ *passeport* التونسي وطلبت لجوء سياسي". كذلك خليل حاول الهجرة عن طريق الحدود البرية المغربية الإسبانية، عن طريق معبر مليلة، فقد أفادنا قائلاً: "حضرلي السيد المغربي *séjour* مضروبة، وقت إلى جينا داخلين للبوابة الإسبانية شدوني البوليسيّة المغاربة، وحاولت مرة أخرى ندخل بسكلات (دراجة عاديّة) في آخر الأسبوع، خاطر الإسبان يدخلوا ببسكلاتات في *weekend* ، لكن وقتها (جاني)، عوامل الطقس مساعدتناش، ديمّا مطر وريح وقتها الإسبان مدخلوش للمغرب..." كما أنّ كلفتها تصل إلى حدود 5آلاف و6آلاف دينار تونسي، أما الصنف الثاني أي الخطير منه والمتمثل في اجتياز الحدود

البحرية عبر قوارب والذي يمرّ عبر شبكات، وقد قال رامي موضحاً شدّة خطورتها "70 بالية ما توصلش و30 بالية توصل"، وقد أضاف في مقام آخر "بقينا ثلاثة أيام لا مأكلة لا شراب، معانا صغار وكبار، والنوم ما خلتناش نوصلو للمبادوزا، ياخى فما اثنين تطوعوا باش يمشو يعلمو علينا، واحد منهم تعب ولّ قال للاخرين كمل انت أخطاك مني، هوما برشا وأنا وواحد، وبعد سيب روحو غرق".

عموماً، توسّعت الشبكات المحليّة للتّهريب وتتنوعت طقوس العبور في سياق الأزمة الاقتصاديّة والاجتماعيّة واتخاذ الحكومات المقاربة الأمنيّة التي تزامنت مع الضغط الهجري وارتفاع عدد المهاجرين، لينخرط الشباب في هذه الشبكات بعد أن خيّبت الثورة وكل الاحتجاجات الاجتماعيّة آمالهم وأحلامهم، فإحباط الاحتجاج ييسّر انحراف الشباب بشبكات الهجرة والتهريب لتتوسّع الشبكات وتنشر وتسقط أكثراً ما يمكن وهذا يعود إلى عدم التجاوب الحكومي مع المطالب المرفوعة في الاحتجاجات الاجتماعيّة، فالتجاوب فقط إما بحلول هشّة أو التبعات العدليّة للمحتجين، وبالتالي ينخرط المحتجون ضمن شبكات تهريب يرونهما حلاً ونافذة نحو تحقيق حلمهم، فشبكات الهجرة والتهريب تصبح بدليلاً وموايًّا لهم من واقع مغرق في الفقر من ناحية وقمعيّ من ناحية أخرى.

خاتمة عامة

يلخص عالم الاجتماع الفرنسي Alain Touraine ثلاثة مبادئ ينبغي أن تكون مجتمعية في كل حركة اجتماعية، "مبدأ الهوية، مبدأ التعارض، مبدأ الشمول أو الكلية"⁴¹. يتلخص المبدأ الأول في أن كل حركة ينبغي أن تعطي لنفسها الهوية، أي باسم من تتحرك، وما هي المصالح التي تدافع عنها، أما مبدأ التعارض فيمكن تقديمها على أن أغلب الحركات الاجتماعية تظهر لأن أفكارا معينة أو مصالح لا تجد اعترافا أو قبولا، وبالتالي تحتاج إلى حركة لتبرر هذه الأفكار أو المطالب وتحقيقها، وكما أن كل حركة اجتماعية ستواجه خصوما ومعارضة، أما مضمون مبدأ الكلية أو الشمولية فهو أن كل حركة اجتماعية تنشط باسم قيم سامية أو مثل عالية أو باسم فكر ما، وإذا لم تكن هذه القيم أو المثل أو الأفكار هي أهداف أو باسم الجميع، فإنها تكون من قبل جزء منهم. وهذه المبادئ الثلاثة اجتمعت في الاحتجاجات الاجتماعية بمناطق المستجوبين، كما لقيت دعما ومساندة سياسية ونقابية وحقوقية بصفات متفاوتة، لكنها لم تحقق مطالبيها، فارتسمت ذخيرة الاحتجاج باليأس والإحباط من قمع وتجريم للحراك وفتح آفاق للتشغيل الهش وحلول أخرى لم تقطع مع الأزمة الاقتصادية، فغدت مشاعر الخيبة لدى الشباب، لتصبح هذه المشاعر مناخا طاردا لهم، وبالتالي العلاقة السلبية بين إحباط الاحتجاجات وتجديد موجات الهجرة غير النظامية وتوسيع الشبكات

⁴¹ Touraine (Alain), *Sociologie de l'action*, Editions du seuil, Paris 1965, P 466

المحلية للتهجير، لنعمل فرضية البحث الآنفة الذكر، لتجدر الإشارة بالقول بأنّ ظاهرة الهجرة غير النظامية لا تفسّر فقط بالنظريات الاقتصادية أو السياسية أو العوامل الثقافية ولا بالعوامل السببية فقط، فمن خلال الاحتجاجات الاجتماعية التي تنتهي بالإحباط يمكن تفسير هذه الظاهرة وهذه هي العلاقة التفسيرية والعلاقة السببية بين الاحتجاج والهجرة، وبعد كلّ تصاعد وضغط احتجاجي إلاّ وتأتي بعدها موجات من الهجرة، فتكمّن طرافة المقال بأنّ التفسيرات السابقة للهجرة لا يمكن إغفالها ولكن نضيف تفسيراً آخراً ربطاً بدیناميكية الاحتجاج.

كما أفادنا المستجيبون بأنّهم على استعداد للهجرة من جديد، فقط يختلفون من حيث المشروع الهجري، إما بشكل نظامي أو غير نظامي، كما عبّروا عن يأسهم من نيل المطالب عن طريق الاحتجاج الاجتماعي، كما فقدوا الثقة في الأحزاب السياسية وفي الانتخابات، لنقدم نحن توصيات مفادها أنّه إذا لم تتمّ مراجعة الخيارات الحكومية والقطع مع سياسة التبعية والتخلّف وعدم فكّ الارتباط مع صندوق النقد الدولي والبنك العالمي ستزداد حدة الأزمة الاقتصادية والاجتماعية ذلك "أنّ البرجوازيات العربية عموماً تتحدد كبرجوازيات كولونيالية، نمت وتطورت في علاقة تبعيّة بنويّة مع السوق الرأسمالية. وفي تبعيّتها البنويّة هذه عجزت عن حلّ المسائل الاجتماعية والوطنيّة. وعجزها هذا ليس طارئاً أو مؤقتاً، بل هو عجز بنويّ تاريخيّ، فهـي لا تستطيع الانتقال إلى نمط رأسـمالي مستقلّ، لذلك فإنّ تجدد الأنظمة العربيـة، وانتقالـها

من البرجوازية التقليدية إلى البرجوازية الصغيرة، لم يجدد إلا مأزها التاريخي، لأنّ هذا التجدد لم يكن إلا استبدالاً طبقياً في نمط الإنتاج الكولونيالي نفسه الذي يحكم حركة البرجوازيات العربية،⁴² ختاماً تجدر الإشارة بالقول، إذا ظلّ نفس الخيار التنموي الهشّ، وغير قادر على تلبية الحاجيات الاقتصادية والاجتماعية، وتراجع قيمة الدينار وهشاشة الطبقة الوسطى وتفاقم البطالة وغياب التنمية وقمع الاحتجاجات الاجتماعية وعدم وضع الديمقراطية في إطارها وهي الديمقراطية المناصرة للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، وفي ظلّ رهانات حكومية تنتج في تشغيل هشّ مثل الآلية وشركات البيئة والغراسة، وعدم مراجعة السياسات المهرجية، والإقرار بحق الإنسان في التنقل تطبيقاً وليس تنظيراً فقط، تتوقع المزيد من موجات الهجرة غير النظامية وبالتالي المزيد من الفواجع والقصص الإنسانية بالبحر الأبيض المتوسط.

⁴² عامل (مهدي). "مناقشات وأحاديث في قضايا حركة التحرر الوطني وتمثيل المفاهيم الماركسية عربياً". دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1990، ص 14

بدعم من



الم المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
47، شارع الدبي卜، بورقيبة الطابق الثاني، 1001، تونس
الهاتف: 71257 665 - الفاكس: 71257 664
البريد الإلكتروني: contact@ftdes.net